الحديث النبوي الشريف بين البلاغة والإبلاغ
قراءة في حديث (إنّ مِمَّا يُنبت الربيعُ لَمَا يَقتُل حَبَطًا أو يُلِمُّ)
the Hadith between rhetoric and reporting

عـــمـــر بـرداوي
الرتبة: أ/ محاضر ب
لونيسي علي الجامعة: البليدة2. الجزائر
البريد الالكتروني:omarberd09@gmail.com
0666899767

تاريخ الاستلام:2018/02/27 تاريخ القبول: 2018/05/17

الملخص:

تميز الحديث الشريف بجملة من الخصائص لا تخرج عن الغرض العام لرسالة الإسلام وهي نشر دين الله الحق وتعليم مبادئه للناس ، ولذلك كانت مهمة التبليغ هي الوظيفة الأساسية والميزة البارزة في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم . ومع كمال التبليغ ، أوتي الرسول جمال البلاغة وروعتها ، فأصباحت أحاديثه الكثيرة أمثالا سائرة ، تحفظها العقول وتتعلق بها القلوب وتأنس لها النفوس، لما تميزت به من عمق المعنى وصحته وحسن الصياغة وجمالها وروعة البيان وأصالته ، ونبل المقصد وسموه؛ مما يفتح المجال واسعا للدارس لتأمل المستويات البلاغية والبيانية ، لاسيما في نماذج متميزة من الأحاديث الشريفة السائرة مسير الكلام المتقن والأمثال الخالدة .

لذلك تحاول هذه المقالة رصد مظاهر البلاغة اللغوية والبيانية في واحد من الأحاديث النبوية الشريفة مع استثمار المكاسب التي حققتها علوم اللسان الحديثة في دراسة اللغة مستفيدة من بعض الإجراءات التطبيقية التي يمكن أن تفيدنا بها بعض

المنارة للاستشارات

المناهج السياقية في تحليل الخطاب ، كالبنيوية والأسلوبية لتحليل الحديث الشريف في مستوياته المعجمية الصرفية التركيبية والدلالية .

الكلمات المفتاحية: الحديث الشريف ، المثل ، التبليغ ، البلاغة ، اللغة ، الأسلوب ، البيان .

Abstract

The Hadith is characterized by a number of characteristics that do not deviate from the general purpose of the message of Islam, namely, spreading the true religion of Allah and teaching its principles to the people. Therefore, the task of reporting was the main function and outstanding feature in the hadeeth of the Prophet (peace and blessings of Allaah be upon him). And with the perfection of the reporting, Oti Prophet Gamal rhetoric and splendor, Vstaht many conversations, such as frequent, reserved minds and related to the hearts and souls of the souls, not characterized by the depth of meaning and health and good formulation and beauty and splendor of the statement and authenticity, and nobility of destination and marked; Rhetorical and pianistic, especially in distinct models of honest conversations that follow the path of perfect speech and timeless proverbs.

Therefore, this article attempts to monitor the manifestations of linguistic and pianistic rhetoric in one of the Noble Prophetic Traditions, while taking advantage of the gains made by modern linguistics in the study of language, benefiting from some applied procedures that can be useful to us in some contextual approaches in speech analysis, Syntactic and semantic lexicography.

Keywords: Hadith, Proverbs, Reporting, Rhetoric, Language, Style, Statement.

المنارة للاستشارات

تقديم:

أرسل الله تعالى رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم لتبليغ رسالة الإسلام للناس جميعا ، وهيأ له الأسباب الكفيلة الكافية لنجاح تلك المهمة النبيلة ، بالصورة الكاملة التي لم تتوفر لغيره ، وفي هذا تكريم لرسول الله صلى الله عليه وسلم و خير للبشرية جمعاء ؛ إن أكثر هذه الأسباب وضوحا تلك التي تعلقت بعوامل نجاح رسالة الإسلام ، وأولها حسن تبليغها وإيصالها للناس من غير لبس أو فساد؛ فكانت مهمة التبليغ من أسمى الوظائف التي وكِّل بها النبي محمد عليه الصلاة والسلام . أدرك الرسول صلى الله عليه وسلم ثقل هذه المهمة ، فراح يردد في خطبة حجة الوداع قولته المشهورة ، ألا هل بلغت اللهم فاشهد ؛ ومع كمال التبليغ أوتي الرسول صلى الله عليه وسلّم جمال البلاغة فسارت أقواله ، على ألسنة الناس حاملة من المعنى الجليل والبيان الجميل ما لم يتحقق لغيره . وبين كمال التبليغ وجمال البلاغة يمكن لأي دارس أن يطرح السؤال الذي يمكن أن يكون إشكالية هذه المقالة ، وهو هل كانت البلاغة جسرا لتحقيق الغاية الابلاغية للحديث أم هي شكل من أشكال السمّو الكلامي والرقيّ البياني التي تميزت به اللغة العربية في عصورها الذهبية ؟

أ/ تبليغ الرسالة :

استقر إذا في وعي الرسول صلى الله عليه وسلم أن يبلغ دين الله للناس عملا بقوله تعالى :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٧﴾ المائدة: ٦٧ . ، لذلك اضطلعت أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم وأحاديثه بأكثر وظائف الكلام أهمية وهي الوظيفة التبليغية ، فما كانت ـ كما قال عباس محمود العقاد (ت1964) ـ : « حياة النبي كلها بعملها وقولها وحركتها وسكونها، إلا حياة تبليغ وبلاغ .»[1]

المنارة للاستشارات

ولأجل أن تؤدَّى هذه المهمة بأكمل صورة ، أوتي الرسول صلى الله عليه وسلم من المعجزات ما لا يتسع المقام لذكره ؛ لكن معجزة القرآن الكريم كلام الله تعالى ، كانت الدليل الحسّي والمعنوي على صدق هذه الرسالة ونبل تلك المهمة .

ب/ البلاغة النبوية :

واستدعت الوظيفة التبليغية التي وكّل بها المصطفى صلى الله عليه وسلم ، أن يهبه الله تعالى ملكة القول، ومهارة الإفصاح بالصورة التي تليق بعلو وقداسة الرسالة التي أرسل بها إلى الناس، فأوتي فصاحة في اللّسان وبلاغة في الكلام وعمقا في البيان ، بصورة أعجزت فصحاء العرب في أيام سؤددهم البياني . يقول الرافعي (ت1937) :« ولا نعلم أن هذه الفصاحة قد كانت له صلى الله عليه وسلم إلا توفيقا من الله وتوقيفا ، إذ ابتعثه للعرب وهم قوم يقادون من ألسنتهم ، ولهم المقامات المشهورة في البيان والفصاحة.»[2] لذلك لما قال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم : « أنا أفصح العرب ، بيد أني من قريش ، ونشأت في بني سعد بن بكر.»[3] لم يكن هذا القول ليثير حفيظتهم ، « والفصاحة أكبر همهم والكلام سيد عملهم ، فما دخلتهم الحمية ، ولا تعاظمهم ، ولا ردوه ، ولا غضوا منه ولا وجدوا إلى نقضه سبيلا ..»[4] لأنهم أدركوا بمعرفتهم بأمر الفصاحة أن تميّزه حق . إذ ينقل الجاحظ (ت255ه) قول يونس بن حبيب (ت182ه) عن محمد بن سلام (ت ؟) :« ما جاءنا عن أحد من روائع الكلام ما جاءنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم »[5] . وبسبب هذه الفصاحة لم يكن للجاحظ بد وهو يستفتح الجزء الثاني من البيان والتبيين إلا أن ينوه بهذا البيان المحمدي ، بهذه المقالة المطولة ، التي جاء فيها : « وأنا ذاكر بعد هذا فناً آخر من كلامه صلى الله عليه وسلم ، وهو الكلام الذي قلّ عدد حروفه وكثر عدد معانيه ، وجلّ عن الصنعة ونزِّه عن التكلف ... واستعمل المبسوط في موضع البسط ، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي ، ورغب عن الهجين السوقي ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة ، وشيِّد بالتأييد ، ويسر بالتوفيق .وهو الكلام الذي ألقى الله

المنارة للاستشارات

عليه المحبة ، وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الإفهام ، وقلة عدد الكلام ، مع استغنائه عن إعادته ، وقلة حاجة السامع إلى معاودته . لم تسقط له كلمة ، ولا زلت به قدم ، ولا بارت له حجة ، ولم يقم له خصم ، ولا أفحمه خطيب ، بل يبذ الخطب الطوال بالكلم القصار...ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا ، ولا أقصد لفظا ، ولا أعدل وزنا ، ولا أجمل مذهبا ، ولا أكرم مطلبا ، ولا أحسن موقعا ، ولا أسهل مخرجا ، ولا أفصح معنى ، ولا أبين فحوى ، من كلامه صلى الله عليه وسلم .»[6] والجاحظ وهو يشيد بهذه البلاغة إنما كان يمور بخلده نوع من أقوال رسول الله صلى الله عليه وسلم آثره الخطباء والبلغاء وسار على ألسنتهم وهو الذي اصطلح على تسميته جوامع الكلم ، وسار مسير الأمثال.

احتلت هذه الأحاديث (الأمثال) موقع الصدارة في متون كتب الأمثال ؛ فقد افتتح أبو هلال العسكري حديثه عن الأمثال بنماذج من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وأولها قوله :« إن من البيان لسحرا »[7] وسار على هذه السنة كل من رغبت نفسه في التأليف في الأمثال والحكم عند العرب، حيث جعل الماوردي (ت450ه) فاتحة الفصل الأول من كتابه الأمثال والحكم آداب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستهلها بحديثه الذي رواه أبو صالح عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :« إنما بعثت لأتمم (مكارم) الأخلاق »[8] ثم أتبعه بجملة من الأحاديث بلغت ثلاثين حديثا قبل أن يصل إلى أقوال الحكماء . ومثلهما ابن عبد ربه في العقد حين استهل حديثه عن الأمثال بقوله :« فأول ما نبدأ به : أمثال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أمثال العلماء..»[9]

جاء اهتمام المدونات بهذه الأمثال بسبب نبلها لفظا ومعنى أولا ، و بسبب أهمية الأمثال في الثقافة العربية ثانيا؛ فقد استقر في وعي هذه الثقافة منذ القديم نوع من الاهتمام بفنون القول وأشكال البيان ، مما جعل كثيرا من الدارسين يقصر حياة العرب العقلية في الجاهلية على اللغة والشعر والأمثال والقصص[10]. وهذا الاهتمام له

المنارة للاستشارات

مايبرره في بيئة طغى عليها الترحال ، ولم تحظ بأسباب الاستقرار وعوامل الحضارة ما يوفر للعقل فرص الراحة وإعمال الفكر والتأمل ، و ربط الأسباب بالنتائج وتعليل الظواهر؛ مما يساهم في تطور العلوم العقلية واتساعها ؛ إن التعامل الحسي مع مظاهر الطبيعة جعل العربي يكتفي بما تقدّمه له حواسه من أسرارها ، فجاء تفاعله المعرفي حولها سطحيا يفتقر إلى عناصر التحليل ومظاهر العمق ؛ وكان يكتفي في أغلب الأحيان بنقل شعوره نحو عاطفة أحسها أو صورة عابرة ألتقطها أو حدث عاشه ، بواسطة اللغة التي اجتهد في تهذيبها ، فسالت على لسانه شعرا منظوما ، أو حكمة مأثورة أو مثلا سائرا؛ بل إنه ليحقّ لنا أن نعتبر كما اعتبر أحمد أمين(ت 1954) أن العرب قد خلفوا من الأمثال ، ما يدل على عقليتهم :« أكثر مما يدلنا الشعر والقصص ، ويظهر أن سبب ذلك أنه يوافق مزاجهم العقلي ، وهو النظر الجزئي الموضعي لا الكلي الشامل ..»[11]. علما أن أكثر ما يتطلبه المثل هو جمال العبارة وروعة البيان ، لذلك حفظت الذاكرة الأمثال وتعلقت بها العقول ، ورغبت فيها القلوب . جاء المثل أسلوبا تعبيريا مرنا ، يلخِّص الموقف من الذات والوجود ؛ وأداة ملائمة للتعبيرعن القناعات والقيم ، والإحساس بالحياة ؛ ولعلّ تلك المرونة وهذه الملاءمة هما اللتان جذبتا العقل الإنساني إلى استعذاب الأمثال ، إذ يجتمع لها كما يقول أبو عبيد (ت224ه) :« ثلاث خلال : إيجاز اللفظ ، وإصابة المعنى ، وحسن التشبيه .»[12] واهتمت العقلية العربية بالأمثال و أولتها الصدارة بين صور التعبير الأخرى، قال عنها صاحب المستطرف، شهاب الدين محمد الأبشيهي (ت 852ه) : « إعلم أن الأمثال من أشرف ما وصل به اللبيب خطابه ، وحلّى بجواهره كتابه ...»[13] . ورفع أبو هلال العسكري(ت 395ه) من مكانة الشاهد والمثل فقال :« ما رأيت حاجة الشريف إلى شيئ من أدب اللّسان بعد سلامته من اللحن ، كحاجته إلى الشاهد والمثل ، والشذرة والكلمة السائرة ، فإن ذلك يزيد المنطق تفخيما ، ويكسبه قبولا ، ويجعل له قدرا في النفوس ، وحلاوة في الصدور ، ويدعو القلوب إلى وعيه ، ويبعثها على حفظه ... وما كان منه مثلا سائرا فمعرفته ألزم ؛ لأنّ منفعته أعمّ ،

المنارة للاستشارات

والجهل به أقبح .»[14] ووضّح الزركشي (ت794ه) أهمية الأمثال فقال: « وفي ضرب الأمثال من تقرير المقصود ما لا يخفى ، إذ الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجلي ، والشاهد بالغائب. »[15] وفضّلها ابن عبد ربّه (ت 328ه) في العقد عن الشعر والخطابة فقال عنها هي :« وشي الكلام وجوهر اللفظ وحلي المعاني ، والتي تخيّرتها العرب ، وقدّمتها العجم ، ونطق بها كل زمان وعلى كل لسان ، فهي أبقى من الشعر ، وأشرف من الخطابة ، لم يسر شيئ مسيرها ولا عم عمومها ، حتى قيل أيسر من مثل »[16]. ولما كانت الأمثال بهذه المنزلة ، وكانت العقلية العربية بهذا الوعي بقيمة المثل وقدرته على التأثير في النفوس ، والنفاذ إلى العقول اختارها الرسول صلى الله عليه وسلم لخطاب الناس وإقناعهم ، فجاءت الكثير من أحاديثة في صورة أمثال سائرة ، شكلت علامات فارقة وهي تؤدي وظيفتها الإبلاغية بصورة متميزة ، تستدعي التأمل العميق والبحث الدقيق للوقوف على جوانب البلاغة، ومظاهر الفصاحة التي ارتقت بها عن مستويات الكلام العادي الذي يتعاوره سواد الناس وعامتهم .

ج/ الحديث النبوي السائر مسير المثل بين التبليغ والبلاغة:

من الأحاديث النبوية الشريفة التي سارت مسير الأمثال هذا النموذج الذي رواه مسلم (ت261ه) في كتاب الزكاة ، والذي منه قوله :« **إن كل ما ينبت الربيع يقتل حبطا أو يلم...** »[17] ثم تناقلته كتب الأمثال بألفاظ فيها فروق . قال أبو هلال العسكري : أول من تكلّم به النبيّ صلى الله عليه وسلم ..فعن عطاء بن يسار ، عن أبي سعيد(الخذري) ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « **إن مما أخاف عليكم ما يفتح لكم من زهرة الدنيا وزينتها ، » فقال رجل : يا نبي الله ، أو يأتي الخير بالشر ؟، فَأُرِينا أنه يُنزَّل عليه ، فقال : «أين السائل؟» فكأنّه حمده فقال:« إنه لا يأتي الخير بالشر ، وإن مما ينبت الربيع لما يقتل حبطا أو يُلمّ** » ؛ وهذا من أحسن الكلام وأوجزه ، وأفصحه لفظا ، وألطفه معنى..»[18] وهو مثل ضربه لمن أعطي من الدنيا حظا ، فألهاه الاشتغال به ،

المنارة للاستشارات

والاستكثار منه ، والحرص عليه ، ومجانبة القصد فيه ، عن إصلاح دينه ، فيكون فيه هلاكه ، كما أن الماشية إذا لم تقتصد في مراعيها حبطت بطونها فماتت أو كادت ، والحبط انتفاخ البطن »[18] وذكر الميداني (ت518ه) هذا الحديث في مجمع الأمثال في الباب الأول فيما أوله همزة فقال في شرحه :« والحبط انتفاخ البطن ، وهو أن تأكل الإبل الذوق فتنتفخ بطونها إذا أكثرت منه ، ونصب حبطا على التمييز، وقوله أو يلم معناه يقتل أو يقرب من القتل ..»[19] كما ذكره ابن عبد ربه في العقد ، وقال في شرحه : « فالحبط ـ كما ذكر الأصمعي (ت216ه) : أن تأكل الدابة حتى ينتفخ بطنها وتمرض منه ، يقال حبطت الدابة تحبط حبطا . وقوله : أو يلم ، معناه : أو يقرب من ذلك ..»[20]

في هذا الحديث تمثيل لما يمكن أن يجرّ على الإنسان من الأذى نتيجة الإسراف في الملذات والاستغراق في متع الحياة ، رأى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم أن يوضّحه ويقرّبه بصورة مناسبة، تُشاكِله وتُشابِهه من صور الحياة التي ألفها الناس في عهده . فكانت تلك الصورة شبيهة بحال الماشية التي تستلذّ طراوة العشب في أول الربيع ، فتأكل منه بدون حساب ، فيجرّ عليها ذلك انتفاخا في البطون، يؤدي بها إلى الهلاك أو المرض . لقد وافق هذا الحديث ذوق الناس البلاغي ، وهل البلاغة إلا موافقة الكلام لمقتضى الحال ؟ و أصبح مثلا سائرا يضرب في مقامات الإسراف من زخرف الدنيا ، وأصل المثل كما يقول أبو هلال العسكري :« التماثل بين الشيئين ، وهو من قولك هذا مثل الشيئ ومثله كما تقول شِبهه وشَبَهُه »[21] والتمثيل أسلوب يلجأ إليه الرسول صلى الله عليه وسلم لغاية التبليغ ، لما فيه من تمثيل حسي قوي الحجّة ، طريف البيان . ومعناه له ما يعضده في القرآن الكريم كثير ، ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ

المنارة للاستشارات

أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ء يونس: ٢٤ و ث آ ا ا آ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ ﴿١٣١﴾ ء طه: ١٣١ ومثله في الحديث الشريف قوله صلى الله عليه وسلم :« فوالله لا الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخشى أن تُبسَطَ عليكم الدنيا كما بُسِطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما اهلكتهُم ، »[22] وهذا البيان المحمدي مما يدخل في باب الترغيب والترهيب في السنة النبوية الشريفة .

يُهيمن على ألفاظ الحديث حقلان معجميان ، هما حقل ألفاظ الترغيب ويضمّ ألفاظ (زهرة ، الدنيا ، الزينة ، النبات الربيع)، وحقل ألفاظ الترهيب ويضمّ ألفاظ (الخوف ، القتل ، الحبط) وتجاور هذين الحقلين يفسح في الحديث فضاء دلاليا لحضور بنية المفارقة ، باعتبارها مكونا جماليا يساهم في تحقيق التفاعل الذهني والوجداني بين البلاغ والمبلغ له ، إن هذا الكمَّ من النقيضة التي توفرها المفارقة اللغوية بين دلالة الرغبة التي تدلّ عليها ألفاظ الخير من جهة بجوار دلالة الرهبة التي تحيل عليها ألفاظ الشرّ والموت من جهة أخرى ، هو الذي يوفِّر للبلاغ قدرا من الشحنة العاطفية والقدرة على التأثير في المبلغ له ، يجعله حاضر الذهن ، ويتحوّل من مجرد متلق سلبي للبلاغ ، إلى متلق إيجابي، يتشوّق بنوع من الحيرة إلى حل تلك المفارقة ، ولذلك يأتي سؤال السائل (قال رجل ، يا نبي الله ، أو يأتي الخير بالشر .؟) إن ثنائية الخير والشّرّ سنة من سنن الحياة ، وفعل الإنسان هو الذي يحدِّد أي الطرفين تكون له الهيمنة ، وبحكم مسؤولية الإنسان حول أعماله ، تتحدد عواقب اغتنامه من الخيرات ومجانبته للشرور ، وهذا ما يحاول الخطاب تبليغه ، فربّ نعمة غير محسوبة عواقبها فيها هلاك ، ورب ضارة نافعة فيها نجاة .

المنارة للاستشارات

تهيمن على المستوى الصرفي صيغ الفعل المضارع (أخاف، تفتح، ينبت ، يقتل ، يلم) وهي صيغ مشحونة بدلالة الزمن في بعديه الحاضر والمستقبل ، ودلالة الحدث المستمر والمتجدِّد في الزمان . إن تركيز الخطاب على هاتين الدلالتين ، يمنح المعاني صفة الديمومة والاستمرار ، بحيث يحاول الحديث تأكيد ديمومة تعالق الخير والشر في الحياة ما تعاقب الليل والنهار ، وتبدلت الفصول ، وكأن الإنسان لايستطيع أن يستوعب دروس الحياة ، حين يظلّ يكرِّر الأخطاء نفسها ليعرض نفسه للعواقب ذاتها.

استقى الرسول صلى الله عليه وسلم مثاله من بيئته البدوية التي من مظاهرها امتهان الرعي، لكنه حرص على اختيار معجمه اللغوي بالشكل الذي يحقّق وظيفة التبليغ ، فجاء الحديث بعيدا عن الغريب والحوشي ، وقلة الغريب- بل ندرته - كما يقول العقاد: « في كلام النبي أجدر الأمور بالملاحظة ... فمُحَمَّد العربي القرشي الناشئ في بني سعد، العالم بلهجات القبائل حتى ما تفوته لهجة قبيلة نائية في أطراف الجزيرة، لم يكن في كلامه كلِّه غريب يجهله السامع أو يحتاج تبيانه إلى مراجعة، وسرّ ذلك أنه يريد أن يبلغ أو يريد أن يصل إلى سامعه، ولا يريد أن يقيم بينه وبين السامع حاجزاً من اللفظ الغريب أو المعنى الغريب»[23] .

يتكون الحديث من تركيبين متعالقين بواسطة عملية التمثيل ، تركيب الممثل له ، (إن مما أخاف ....) وتركيب الممثل به (إن مما ينبت الربيع ...) ، وبينهما تشاكل تركيبي ، والتشاكل (L'isotopie) من المفاهيم الإجرائية التي أولتها دراسات تحليل الخطاب عناية بالغة، إذ « يحدد التشاكل الآليات المعدلة التي تساهم في جعل ملفوظ أو نص مجموعة دلالية ؛ وتنتج هذه المجموعة قبل كل شيئ عن الإعادة على امتداد سلسلة مركبات ...تضمن للخطاب الملفوظ انسجامه »[24] وهذا رأي (غريماس(A.J.GREIMAS)) وبعض المنضرين ، أما (فرانسوا راستي FRANCOIS RASTIER) فقد وسع هذا المفهوم فقال : « نسمي تشاكلا كل تكرار لوحدة لسانية مهما كانت طبيعتها »[25]، ولذلك فإن هذا

المنارة للاستشارات

المفهوم ،« يمكن رصده ـ حسب رأيه ـ عبر جميع مستويات النص لضمان وصول الرسالة أو الخبر »[26]. وفي هذا الاتجاه من توسيع المفهوم أخذت جماعة مو(M) في فرنسا حين عرفت التشاكل بأنه : « تكرار مقنن لوحدات أو تكرار لنفس البنيات التركيبية (عميقة أو سطحية) على مدى امتداد قول »[27]. أما محمد مفتاح فخلُص إلى أن التشاكل هو :« تنمية لنواة معنوية ، سلبا أو إيجابا ، بإركام قسري أو اختياري لعناصر صوتية ومعجمية وتركيبية ومعنوية وتداولية ، ضمانا لانسجام الرسالة، »[28] وهو تعريف يرفع من قيمة التشاكل في إنتاج المعنى وتحقيق انسجام الخطاب .

تبدو الوظيفته البنائية للتشاكل في هذا الحديث في تحقيق التوازي والتوازن التركيبي للخطاب ، أما وظيفته الدلالية فهي بالدرجة الأولى إبلاغية إقناعية : هي وصول البلاغ وتمكين المعنى من ذهن المبلغ له ، على أكمل وجه وبأرقى أسلوب يمكن أن يصل به البلاغ . ومظهر هذا التشاكل نحوي ، ذلك أن كلا العبارتين جملة إسمية مؤكدة بواسطة أداة التأكيد إن ، والمسند في كليهما محذوف يفسّره حرف الجر واسم الموصول وصلة المصول جملة فعلية مضارعية : وفق الجدول التالي :

صيغة التركيب	أداة التوكيد	المسند إليه	حرف الجر	الاسم الموصول	صلة الموصول الفعل المضارع
الممثل له	إنَّ	محذوف تاويله(بعضا)	من	ما	أخاف
الممثل به	إنَّ	محذوف تأويله(بعضا)	من	ما	يُنبِت الربيع

المنارة للاستشارات

إن تأمل الجدول : يمكن أن ينبهنا إلى الملامح التالية :

1/ إن تأكيد التركيبين بأداة التأكيد(**إن**) وظيفته على المستوى التداولي ، رفع الشك عن المبلغ له في صدقية الحكم المسند إلى المسند إليه ، إذ يطلق علماء البلاغة على هذا الضرب من أضرب الخبر مصطلح الخبر الطلبي ، وفيه يفترض أن يكون المخاطب في حالة شكّ ويطلب اليقين ، لذلك يُؤكَّد له الخبر بمؤكِّد واحد[29]، رفعا للشك وإحلالا لليقين ، ولكن سؤال السائل (هل يكون في الخير شرّ يارسول الله ؟) يكشف درجة أعلى من الشك لدى المبلغ له يحتاج المبلِّغ بسببها درجة أعلى من التأكيد ليزول هذا الشك ، ولذلك انتقل المبلِّغ من الضرب الطلبي المؤكد بأداة تأكيد واحدة هي (إنَّ) إلى الضرب الإنكاري على مستوى المثل حين دعم أداة التأكيد (إن) بمؤكد آخر هي لام التأكيد (**إن** مما ينبت الربيع **ل**ما يقتل ..) لا يساهم التأكيد في مجرد الحجاج ، وتأكيد نسبة الحكم المسند للمسند إليه ، ورفع الشك المتوهم لدى المبلغ له فحسب ، بل يضطلع أيضا بوظيفة بنائية هي انسجام الخطاب ووحدته ، لأنه يراعي وضع المبلغ له وطبيعة استقباله للبلاغ .

2/ إن حذف المسند إليه (بعضا) مظهر من مظاهر البلاغة ؛ والحذف كما يقول الجرجاني : « ترى به ترك الذكر ، أفصح من الذكر ، والصمت عن الإفادة أزيد للفائدة ، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأتمَّ ماتكون بيانا إذا لم تبن .»[30] فالمبلغ الرسول صلى الله عليه وسلم يريد أن يشرك المبلغ له في بناء مضمون البلاغ عن طريق تحفيز فكره في تصور الأمر المحذوف ، لم يترك المبلِغ المعنى غفلا بل زوده بما يجليه فكان حرف الجر بدلالة التبعيض مقرونا باسم موصول دال على غير العاقل مما يمكن المبلغ له من تقدير المحذوف . ولما كان المحذوف غير عيني كان من شأن المبلغ له أن يتصوره بالصورة التي تتلاءم مع تفكيره وإدراكه للأشياء ، ويكفيه أنه بعض فيه ضرره وشقاءه ، خاصة وأن جملة الصلة قد تضمنت مايمكن أن يرفع إبهامه ويجلي غموضه ، وهي تقترن بدلالة الخوف ؛ ومن ثمة فإن هذا الحذف يمكن أن يحيل على فداحة

المنارة للاستشارات

الضرر حتى يدرأ المبلَّغ له نفسه عن كل مايضرّ ويهلك . وفي هذا الإخفاء تشويق للمبلغ له ، وجلب لاهتمامه وإثارة لعواطفه ،لاسيما إذا كان هذا المحذوف بعضا من كل، تصوّر الناس اقترانه بالخير ، (زهرة الدنيا وزينتها) ، و(نبات الربيع وخضرته) . ثم إن هذا الحذف كفيل بأن يمنح البلاغ الامتداد في الزمان والمكان ، بما يوفّره له من توسّع في التأويل ، فقد يكون المحذوف طعاما مباحا فيه ضرر، أو مالا حراما فيه تعدّ ، او متعة من متع الحياة فيها ندم ، وغير ذلك كثير مما يعرض للإنسان من رغبات قد يكون فيها سوء..

يتشاكل التركيبان كذلك على مستوى الخبر وفي كليهما جاء خبر إن اسما موصولا صلته جملة فعلية فعلها مضارع ، إن كون الخبر اسما موصولا مبهما يعمق دلالة التشويق في البلاغ ، ويثير رغبة المبلغ له في البحث والسؤال ، وورود الصلة بصيغة الفعل المضارع ، فيه تأكيد صدقية الحدث في المستقبل وثبات حدوثه ، فهو وإن لم يحدث في زمن النبوة ، فإنه لابد حادث في المستقبل ، عندما تتوسع حياة الناس ويسهل عيشهم ، وتغنى بلادهم . ويصيبون من النعيم ما لم يتح لهم مثله في زمن النبوة ، وفي هذا نوع من استشراف المستقبل والتنبؤ به .

لاحظنا أن الحديث قد تضمن تمثيل صورة ذهنية متوقعة بصورة محسوسة من وحي البيئة البدوية ، صورة الماشية التي تسرف في أكل العشب ، حتى تنتفخ بطونها وتهلك ، وهذا الشكل البياني يصنفه علماء البلاغة في باب تشبيه التمثيل ، حيث يكون وجه الشبه مأخوذا من متعدد ، وفيه يكون المشبه والمشبه به مشتركين في أوجه شبه مختلفة ومتعددة ، ولاشك أن إصابة الإنسان من نعيم الدنيا وإسرافه في الملذات دون إعمال العقل والتفكير في العواقب ، صورة مركبة قوية الشبه ، بحال البهائم التي تدفعها غريزة الجوع وإغراء نبات الربيع ، فتندفع إلى الأكل حتى تسقم وتهلك ، وإدراك الرسول صلى الله عليه وسلم لهذا التشابه ، هو توفيق من الله أولا ، ودليل على بشرية محمد صلى الله عليه وسلم ومعايشته لحياة الناس ومشاركته لهم في أحوالها ثانيا ؛ لأنه

المنارة للاستشارات

مافتئ يتأمل الحياة وصورها من حوله ويتمعن أسرارها ، ويربط نتائجها بأسبابها ، فأتيح له من الفهم العميق للحياة ، ماكان مُعِينا له على تبليغ دعوته للناس .

ومظهر البلاغة في الحديث أيضا ، هو روعة البّيان التي تجلت في صوغ الصور البيانية بأسلوب عفوي لا تكلف ولا وإسراف فيه ، فقد رأى الرسول صلى الله عليه وسلم ، أن توفر المتع في الحياة شبيه بتفتح الزهرة ، لكن البلاغة تؤثر الإجاز فحذف المشبه وصرح بالمشبه به من قبيل الاستعارة التصريحية (ما يفتح لكم من زهرة الدنيا) وهي في الوقت نفسه تنفتح على صورة التشبيه البليغ من نوع إضافة المشبه به (الزهرة) للمشبه (الدنيا) . لاتضطلع الصورة بمجرد الإبانة والإيضاح ، بل تضطلع بالوظيفة الحجاجية ، حين تصبح الزهرة دليلا على الإغراء ومظهرا للجمال الذي يحمل في عمقه القبح . وفي مستوى المثل اضطلع المجاز العقلي بالوظيفة الإيضاحية الحجاجية ذاتها ، حين أُسنِد فعل الإنبات لغير فاعله الحقيقي لعلاقة الزمانية (ينبت الربيع) إن وجه البلاغة في هذه الصورة هو تحقيق الانسجام في البلاغ ، إذ لما ذكرت الزهرة في عبارة الممثل له ، كان من المستحسن ذكر ما يقربها في عبارة الممثل به ؛ وربط ما ينبت الربيع بفعل القتل فيه مفارقة عجيبة ، ذلك أن العرب الذين كانوا يعيشون في بيئة صحراوية عزّ فيها الغيث ، وندرت فيها منابت العشب كان من الطبيعي أن تحن نفوسهم إلى الغيث والنبت ، فيأملون منه الخير العميم والنفع العظيم ، وما كان يخلد في بال أكثرهم ، أن في ذلك ضررا لهم . لذلك مثّل الرسول صلى الله عليه وسلم لمغبة الإفراط في المتع بهذه الصورة المستوحاة من واقع البيئة . لقد أصاب هذا المثل من البلاغة حظا كثيرا وبلاغة المثل كما نقل أبو حيان التوحيدي :« أن يكون اللفظ مقتضبا ، والحذف محتملا ، والصورة محفوظة ، والمرمى لطيفا والتلويح كافيا ، والإشارة مغنية ، والعبارة سائرة»[31] . لقد ارتفع الحديث عن قيود الشعر ونأى عن خصائص النثر فكان مثالا للكلام الحسن الذي وصفه أبوحيان فقال : « أحسن الكلام مارق لفظه ، ولطف معناه ، وتلألأ رونقه ، وقامت صورته بين نظم كأنه نثر ، ونثر كأنه نظم ، يُطمع مشهوده بالسمع

المنارة للاستشارات

، ويمتنع مقصوده على الطبع ؛ حتى إذا رامه مريغ حلَّق ، وإذا حلّق أسفَّ ، أعني يبعد على المحاول بعنف ، ويقرب من المتناول بلطف »[32] وهو الأسلوب الذي دأب المحدثون من أهل البلاغة على تسميته بالسهل الممتنع .

خاتمة

وصفوة القول ، هو أن الكثير من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم التي صنفها العلماء تحت عنوان جوامع الكلم وسارت مسير الأمثال ، قد بلغت القمة في بلاغة أساليبها ودقة ألفاظها وإشراق بيانها ، مما يؤكد أن كلام الرسول صلى الله عليه وسلم إنما كان يصدر عن منبع مقدس هو منبع النبوة . لقد كانت تلك البلاغة فعلا مظهرا للجمال البياني ، دون أن تكون حلية جميلة تضاف إلى الحديث الشريف فتشغل المبلغ له عن جوهر المعنى ، وتصرفه عن نبل المقصد ، بل كانت وسيلة لغاية أسمى هي الغاية التبليغية ، والتي من وظائفها ترغيب الفرد المسلم في الفضائل حتى يقبل عليها ، وترهيبه من الرذائل حتى ينصرف عنها .

استدعت الوظيفة التبلغية كذلك غاية الاقناع فكان المثل والصورة البيانية من الأدوات الحجاجية التي تحقق تلك الغياية لأن أثرها لا يصيب وجدان المتلقي فحسب بل يمتد إلى عقله وفكره .

فالإبلاغ والإبانة هما جوهر البيان المحمدي وذاك ماجاءت السنة الشريفة كلها لتضطلع به.وهو الغاية التي تندرج في الهدف العام للرسالة المحمدية ، وهي نشر دين الله الإسلام وتعليمه للناس جميعا.

الهوامش والإحالات :

1/عباس محمود العقاد ، عبقرية محمد ، وزارة الثقافة والفنون والتراث ، قطر، د/ط ، 2013، ص94 . 2/ مصطفى صادق الرافعي ، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، دار الأرقم للطباعة

المنارة للاستشارات

والنشر بيروت لبنان ، د/ط، د/ ت ، ص223.

3/ جلال الدين السيوطي ، المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، ج/1، تح/ محمد جاد المولى ، محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، صيدا لبنان 1986، ص 210. هذا الحديث له لفظ مخالف يقول عنه ابن كثير في تفسيره : « أما حديث : (أنا أفصح من نطق الضاد) فلا أصل له :ينظر: أبو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي ، تفسير القرآن العظيم ، تحقيق سامي بن محمد السلامة ، ج1، دار طيبة للنشر والتوزيع ، الرياض، ط/2، 1999 ص143.

4/ الرافعي ، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص 225.

5/ الجاحظ ، البيان والتبيين، ج/2، تح/ محمد أبو الفضل إبراهيم ،مكتبة الخانجي القاهرة ، ط/ 7، 1988، ص18 . 6/ الجاحظ ، البيان والتبيين ،ص 16، 17، 18.

7 / أبوهلال العسكري ، جمهرة الأمثال ج/1، تح/ أبو الفضل إبراهيم ، وعبد المجيد قطامش ، دار الجيل ، ودار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت ، ط/ 2، 1988، ص13.

8/ الماوردي علي بن محمد بن حبيب ، الأمثال والحكم ، تح/ فؤاد عبد المنعم أحمد ، دار الوطن للنشر ، السعودية ط/ 1، 1999. ص53 . وذكره البخاري في الأدب المفرد بلفظة (صالح الأخلاق) ، رقم 273 , ينظر: ناصر الدين الألباني ، صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري ، محتبة الدليل ، العربية السعودية . ط/4، 1997، ص 118.

9/ ابن عبد ربه ، العقد الفريد، ج/ 3 ،ص3 .

10/ أحمد أمين ، فجر الإسلام، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط/11، 1975، ص48

11/ أحمد أمين فجر الأسلام ص64.

12/ أبو عبيد بن سلام ،كتاب الأمثال، تح/ عبد المجيد قطامش ، دار المأمون للتراث دمشق ، ط/1 ، 1980، ص34 . 13/. شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي ، المستطرف في كل فن مستظرف ج/1 ، مكتبة الجمهورية العربية مصر ، د/ط، د/ت، ص27 .

14/ أبوهلال العسكري ، جمهرة الأمثال ، ص5 .

15/ بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، تح/ محمد أبو الفضل إبراهيم ، ج/1 المكتبة العصرية صيدا بيروت ط،2، 1972، ص 488 .

16 /أحمد بن محمد بن عبد ربه ، العقد الفريد، ج/3، تح / عبد المجيد الترحيني ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، ط/1، 1983، ص3 .

المنارة للاستشارات

17/ مسلم بن الحجاج بن مسلم ، صحيح مسلم ، ترقيم وترتيب محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الفجر للتراث ، القاهرة ، ط/2، 2013، (كتاب الزكاة ، باب تخوف ما يخرج من زهرة الدنيا)، ص 334.

18/ أبوهلال العسكري ، جمهرة الأمثال ، ج/1،ص16.

19/ أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري الميداني ، مجمع الأمثال ، ج/1، تح/ محمد محي الدين عبد الحميد ، المعاونية الثقافية للاستانه ايران 1987 ، ط/1، ص10.

20/ ابن عبد ربه ، العقد الفريد، ج/ 3 ص5، 6 .

21/ أبوهلال العسكري ، جمهرة الأمثال ص8 .

22/ البخاري ، صحيح البخاري ، باب الجزية والموادعة مع أهل الذمة والحرب ، تح عبد الرؤوف السعيد ، دار الرشد للكتاب، باب الواد الجزائر ص663 .

23/ العقاد ، عبقرية محمد ص98.

24/ باتريك شارودو ، ودومينيك منغنو ، معجم تحليل الخطاب . تر عبد القادر المهيري ، وحمادي صمود، دار سيناترا ، المركز الوطني للترجمة ، تونس 2008.ص322.

25/FRANCOIS RASTIER.(Systématique des isotopies)A .J.GREIMAS. essais de sémiotique poétique. Librairie Larousse ;1972 ;P 82 26 . FRANCOIS RASTIER. (Systematique des isotopies) 83

27/ محمد مفتاح ، تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)،المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب،ط/4، 2005. ص21 .

28 / محمد مفتاح ، تحليل الخطاب الشعري ص25.

29/ ينظر عبد العزيز عتيق ، علم المعاني . دار الأفاق العربية القاهرة ،ط/1 2006، ص39.

30/ الجرجاني ، عبد القاهر ، دلائل الإعجاز ، حققّه وقدّم له ، محمد رضوان الدّاية ، وفايز الدّاية ، دار الفكر دمشق ، ط/1 ، 2007،ص170 .

31/ أبو حيان التوحيدي، الامتاع والمؤانسة ، ج/2، مراجعة هيثم خليفة الطعيمي ، المكتبة العصرية صيدا لبنان ، 2011، ص 255.

32/ أبو حيان التوحيدي، الامتاع والمؤانسة ، ج/2 256.

المنارة للاستشارات

المنارة للاستشارات